دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان:	أهل فاس بعيون أندلسية
المصدر:	مجلة أمل
الناشر:	محمد معروف
المؤلف الرئيسي:	أستيتو، محمد
المجلد/العدد:	مج 9, ع 27
محكمة:	لا
التاريخ الميلادي:	2001
الشهر:	مايو
الصفحات:	255 - 275
رقم MD:	409953
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	AraBase, HumanIndex, EcoLink
مواضيع:	القيم الاخلاقية ، فاس ، الاندلس ، المغرب ، الشعر العربى ، شعر الهجاء ، الصراع الاجتماعى ، الاحوال الاجتماعية
رابط:	https://search.mandumah.com/Record/409953

© 2020 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

أهـل فاس
بـعيون أنـدلسية(1)

محمد استيتو*

سنحاول في هذه المداخلة أن نعرض لبعض الجوانب من الشخصية الفاسية بعيون أندلسية، مركزين بصفة خاصة على ما خلده الأندلسيون في أهل فـاس مـن القبائح وما نسبوه إليهم من نقائص وعيوب. صحيح إن من الأندلسيين مـن قـالوا أشياء جميلة في فاس وأثنوا على فضائل أهلها – إن صدقوا أم جاملوا أم نـافقوا – إلا أنهم عرفوا كذلك بأنهم هم الذين كانوا أشد مضاضة علـى الفاسـيين خاصـة والمغاربة عامة من الحسام المهند، كما يقال. لذا لا غرو إذا كان أهل فاس كثيرا مـا يرددون هذين البيتين(2):

حسدوا الفتا إذ لم ينالوا سعيه فالناس أعداء له وخصـوم
كضرائر الحسناء قلن لوجهها حسدا وبغضا إنه لذميـم

وعلى أي حال، فأيا كانت الصورة التي جهد الأندلسيون في إخراجها لأهـل فـاس وإفشاء عيوبها بين خصوم الفاسيين أو بين أعدائهم، فإن تلك الصورة لا تحيد فـي المجمل عن إطار اللوحة العامة التي رسموها للمغرب وللمغاربة كافـة، متـأثرين

* أستاذ باحث بكلية الآداب – وجدة.

في ذلك بانعكاسات أسباب حالات التوتر والصراع التي شابت العلاقات بين العدوتين ونتائجها، وما تولد عن ذلك من حواجز نفسية ومظاهر من الانفعال والتشنج والنفور، وما إلى ذلك مما عبر عنه الأندلسيون أنفسهم بنعوت شتى، منها: العداوة، والحسد، والكراهية، والبغضاء، والنفرة...(3) وتجسد لديهم، بصفة خاصة، في مجموعة من الأمثال وفي ما ثار بينهم وبين المغاربة من نزاعات المفاخرة والمنافرة والمفاضلة... التي برع فيها الأندلسيون بشكل كبير، ولاسيما ذوو الأصول المشرقية منهم، الذين غلب عليهم التعصب وأصابتهم آفة التبجح والاستعلاء، ونذروا أنفسهم لنزع كل مزية فضل عن المغرب ورمي أهله بكل خلة شنعاء.

وهكذا فإن ابن بقي (4) لم ير في المغرب إلا بلد شح وبخل وقلة مروءة، كما في هذه الأبيات، التي قال فيها:

أقمت فيكم على الإقتار والعدم لو كنت حرا أبي النفس لم أقم
وظلت أبكي لكم عذرا لعلكم تستيقظون وقد نمتم عن الكرم
فلا حديقتكم يجبى بها ثمر ولا سماؤكم تنهل بالديم
لا رزق عندكم لكن سأطلبه في الأرض إن كانت الأرزاق بالقسم

ولم ير ابن شخيص(5) في المغرب إلا بلدا قفرا، لا علم فيه ولا أدب، وليس فيه إلا الدهماء والغوغاء، كما في قوله:

وزادها في عماها أن أولها ألقى العصا حيث لا علم ولا أدب
نشت مع الوحش في دهماء ليس لها في غير حسو الحسى رأي ولا أرب

أما المرتضى المرواني(6) ، فإن المغاربة لم يكونوا بالنسبة له أكثر من عنصر مخرب ومفسد للأحوال والنظم، لذا وجب استئصال شأفتهم، كما في هذه الأبيات، التي نظمها لما ملك الأدارسة قرطبة، والتي جاء فيها:

قد بلغ البربر فينا بنا ما أفسد الأحوال والنظما

كالسهم للطائر لولا الـــذي فيه من الريش لما أصمى
قوموا بنا في شأنهم قومة تزيل عنا العار والرغمـــا
إما بها نملك أو لا نـــرى ما يرجع الطرف به أعمى

إن مثل هذه النعوت والمواقف والصور لا تحصى في المؤلفات الأندلسية والمغربيـة والمشرقية على حد سواء، وتكاد تكون الإشارة إليها عامة سواء في كتـب الوقـائع والأخبار، أم في كتب الرحلات والجغرافية، أم في كتب التراجم والســـير، أم فـي المصنفات الأدبية على اختلاف مشاربها، والتي يظهر في كثير منها أنه لم يسلم مـن بذاءة الأندلسيين حتى المغاربة الذين كانوا يشـــاركونهم الوطـن أو يقيمـون بيـن ظهرانيهم، بمن فيهم أولئك الجنود حماة الأرض الأندلســـية وحـراس ممتلكـات أهلها، لا لشيء إلا لأن كل ما كان يمت إلى المغرب بصلة كان غير مرغوب فيـه، كما تعبر عن ذلك هذه النماذج من أمثال العوام، التي كانت كثـــيرة التـداول فـي المجتمع الأندلسي:

- "كل ما يجي من الغرب مليح إلا ابن آدم والريح."(7)
- "البربري والفار لا تعلم باب الدار."(8)
- "أتيس من توقرت البائت الذي اكسر ضرس بش ينطبع له التصفير."(9)
- "أتيس من عبوا البائت الذي باع الجلابية واشترى المقرع."(10)

من خلال هذه الأمثال وغيرها، يمكن القول إن المغاربة الوافدين على الأندلـس كانوا يعتبرون – في نظر الأندلسيين – مصدر إزعاج وتشويش لمخالفتهم للنظـــم، ويحملون مسؤولية ما كان يصيب المجتمع الأندلسي من انحرافات وآفات اجتماعيـة، لأنهم "طوائف منحرفة الطباع خارجة عن الأوضاع..."(11) ، فلا غرابة إذن إذا كان المغربي البربري يمثل بالنسبة للأندلسي تلك الشخصية الغريبة الأدوار والأطـــوار والطباع، التي لا تستحضر سيرتها إلا في أجواء التفكه والتنكيت، أو لرميـــها بمـا يستعاذ به من مكاره الأفعال والأمور.

ومهما يكن من أمر، فإن مواقف بعض الأندلسيين من المغاربة عموما – بالأندلس كانوا أم بالعدوة الجنوبية – لم تقف عند مجرد الفتور والتحفظ والنفور، وإنما تعدته إلى النبش في أسرارهم والكشف عن نقائصهم وفضح عيوبهم ومساوئهم. صحيح إن كثيرا منها ليست أكثر من إسقاطات، أو حوادث وحكايات مختلقة، أو ردود أفعال انفعالية، يشهد على ذلك شحنها، في الغالب الأعم، بلهجات العداء والمبالغة والتهويل، لكن هذا لا يمكن أن يعتمد مبررا لنفي بعض تلك الآفات والعيوب الاجتماعية التي عيّر بها الأندلسيون جيرانهم المغاربة، وأهل حاضرة فاس منهم خاصة، حيث يظهر أن من الأندلسيين من كانوا يجدون لذة ومتعة في إثارة نقائصهم، ولاسيما من قبل أولئك الذين أقاموا بينهم وعاشروهم وتمكنوا من الاطلاع على خباياهم وأسرارهم.

ويبدو أن الأندلسيين اعتمدوا، في كثير من الأحيان، أساليب لا تخلو من ذكاء ومهارة في التشهير بتلك الأسرار والعيوب، كاعتمادهم على إثبات ما أفشاه المغاربة أنفسهم، وذلك حتى يقال: "لقد شهد شاهد من أهلها"، فتكون الحجة والبينة أقوى ويصدق السند.

وعندما تحدث الأندلسيون عن فاس، فإنه بالرغم من الازدواجية التي ميزت التركيبة السكانية والعمرانية لهذه المدينة، بحكم أنها قامت منذ تأسيسها – إلى العصر المريني – على شطرين، هما: عدوة الأندلسيين (أو عدوة الأندلس)، التي غلب فيها العنصر الأندلسي، وعدوة القرويين، التي ساد فيها العنصر المغربي البربري، وبالرغم من غلبة روح التساكن بين العدوتين، إلا أن ذلك كله لم يمنعهم من التعصب لبني جلدتهم بعدوة الأندلسيين، وذلك بإثارة عوامل الاختلاف والتمييز بين عدوتي المدينة، والمفاضلة بينهما أحيانا لمجرد المفاضلة أو تقديم مقارنات لا تخلو في كثير من الأحيان من تصنع وتكلف، بل وسخف كذلك.

فهذا أبو عبيد عبد الله البكري الأندلسي(12) مثلا، بالرغم من أنه يقر بأن "مدينة فاس مدينتان مقترنتان"، إلا أن ذلك لم يمنعه من أن ينتقي من النصوص ما

يمكن من تمرير بعض أحكام القيمة والاستنتاجات والخلاصات، كتأكيده إن بعدوة الأندلسيين "تفاح حلو يعرف بالأطرابلسي، جليل حسن الطعم، يصلح بها، وله غلة، ولا يصلح بعدوة القرويين..."، التي إنما "يجود [بها] الأترج ويعظم ولا يجود بعدوة الأندلسيين..."، ومثل ذكره إن "سميد عدوة الأندلسيين أطيب من سميد عدوة القرويين لحذقهم بصنعته..."، أو إن نساءهم أجمل من نساء القرويين، وأن رجال القرويين أجمل من رجال الأندلسيين...!

وعلى العموم فإنه يمكن القول إن الأندلسيين بهذا النوع من أساليب المفاضلة والمقارنة وبمثل هذه الآراء والأفكار، نجحوا في استدراجنا إلى استخلاص بعض الاستنتاجات، التي أبدوا، في كثير من الأحيان، هم أنفسهم نوعا من التحفظ والحيطة في التعبير عنها صراحة، ولاسيما ما تعلق منها بمجموعة من الظواهر الاجتماعية السلبية، التي نسبوها إلى الفاسيين وضخموا صورها ووقائعها ونفخوا في أحداثها، كما لو كانت مقتصرة عليهم دون سواهم، ومنها:

اللـــؤم :

الواقع أننا لم نقف على إشارات كثيرة ترمي أهل فاس بهذه المنقصة، وما هو متوفر منها انتقى الأندلسيون معظمه – عن قصد غالبا – من أقوال وشهادات محلية، كتلك التي نقلها البكري عن قاضي تاهرت أحمد بن فتح، والتي هاجم فيها أهل عدوتي فاس معا دون تمييز، وذلك من خلال هذين البيتين:

أسلح على كل فاسي مررت به في العدوتين معا ولا تبقين أحدا
قوم غنوا اللؤم حتى قال قايلهم من لا يكون لئيما لم يعش رغدا(13)

الأنفة والشم ومقت الغرباء

كثيرا ما عير الأندلسيون أهل فاس بهذه الصفات الذميمة المرتبطة ببعضها. وفي هذا الصدد كذلك، نقل البكري عن المغاربة –مرة أخرى – أن من أمثالهم: "فاس بلد بلا ناس"(14). فهل كانت مدينة فاس كذلك فعلا!؟

لقد أورد الأسير الإيبري دييكو دي طوريس Diego DE TO RRES في القرن 16م – أي بعد حوالي خمسة قرون على عصر البكري – إشارة طريفة في الموضوع ، فقد ذكر أنه كانت على السور، قرب الباب المؤدي إلى فاس البالي، لوحة حجرية نقش عليها هذا المثل القائل: "فاس بلاد الناس"، (يعني: مقام الناس) و"من يخرج من فاس أين يذهب."(15) ؟

فهل يمكن القول إن هذه اللوحة كتبت لتقوم ما "اعوج" على لسان العامة وترد الاعتبار لأهل المدينة، أم إن ما جاء فيها على لسان العامة إنما كان تحريفا لمضمونها؟

مهما يكن من أمر، فإن عددا من الأندلسيين – لاسيما الذين نزلوا بفاس وافتتنوا بجمالها – لم يخفوا، في المقابل، الإفصاح عن تذمرهم من بعض نقائص أهلها وعيوبهم كتبرمهم من الغرباء. وفي هذا الصدد قال يحيى بن سهل اليكي(16) أحد أشهر خصوم الفاسيين:

فراق الهم عند خروج فاس لكل مسلمة تخشى وباس
فأما أرضها فأجل أرض وأما أهلها فأخس ناس
بلاد لم تكن وطنا لحر ولا اشتملت على رجل مواسي

وقال لسان الدين ابن الخطيب(17) في السياق ذاته دائما:

فاس لعمري هي الدنيا بأجمعها لو لم يك القلب فيها ضيقا حرجا
من حل ساحتها لم ينج من كدر كأنما همها بمائها مزجا

وقال أيضا(18):

يا حبذا فاس الغراء من بلد كجنة الخلد أشجارا وأنهارا
الله يعلم أني مذ حللت بها وجدت دارا ولكن لم أجد جارا

وأضاف ابن الخطيب، في مناسبات أخرى، إن من صفات أهل فاس "تجهم الوجوه للغريب..." حتى إن الرجل منهم "يلقى (...) أبا مثواه فلا يدعوه إلى بيته، ولا يسمح

ببقله وزيته، [لذا] لا يطرق الضيف حماهم، ولا يعرف اسمهم ولا سماهم..."، ومع هذا فإنهم "يرون لأنفسهم مزية الفضل..."(19)

وأكد الوزان من جهته بعض هذه النقائص المذمومة في أهل فاس من خلال قوله: "إن أكثرهم بغيضون لا يحبون الغرباء، مع أن عدد الغرباء قليل بفاس... و... أن الأعيان متكبرون جدا لدرجة أن عددا قليلا من الناس يستطيعون معاشرتهم، ويصدق نفس الشيء على العلماء والقضاة الذين يأبون، حفاظا على سمعتهم، أن يتعاملوا إلا مع بعض الأشخاص فقط..."(20)

الجبن وقلة الشجاعة :

كان من الطبيعي أن يتحدث الأندلسيون عن مدى شجاعة الفاسيين وقدرتهم على القتال، لاسيما في زمن سيطرت فيه هواجس المواجهة والتصدي والصمود والبطولة والفروسية والذود عن العرض. ولم يكن بالشيء الغريب أن يطعن بعض الأندلسيين في شجاعة أهل فاس ورجولتهم ويلمحوا، بل ويصرحوا أحيانا باتصافهم بالجبن وقلة الإرادة والعزيمة، كما قصد البكري، من خلال إثباته هذين البيتين المنسوبين لإبراهيم بن محمد الأصيلي والد الفقيه أبي محمد المفضل ابن عمر المذحجي، جاء فيهما(21) :

دخلت فاسا ولي شوق إلى فاس والجبن يأخذ بالعينين والراس
فلست أدخل فاسا لو حييت ولو أعطيت فاسا بما فيها من الناس

واللافت للانتباه أن الحديث عن مدى شجاعة أهل فاس لم يكن يثار، في الغالب، إلا في إطار من المقارنة أو المفاضلة أو التمييز أو قياسا بشجاعة أهل الأندلس، لاسيما منهم أندلسيو مدينة فاس وبالوافدين الجدد عليها على وجه التحديد، كما فعل البكري حين تحدث عن أن رجال عدوة الأندلسيين أشجع وأنجد من القرويين!(22)

وقد اعتمد الإيبريون – ورثة الأندلس، بعد طرد المسلمين منها – بدورهم أسلوب المقارنة نفسه، عند حديثهم عن مدى شجاعة الفاسيين. فقد أكد الأسير الإسباني كربخال مرمول(23) في القرن 16م أن أنجد المجندين بفاس هم "مورسكيو

إسبانيا الذين نزحوا من غرناطة والأندلس." أما أهل فاس "الآخرين إنما هم أناس تسلية مترفهون، لا يذهبون إلى الحرب إلا مكرهين." ويعتبر مرمول هذه الخصلة مزية شهيرة يتمتع بها الفاسيون، منحها إياهم الملوك الأوائل (الأدارسة) الذين جعلوهم في حل من الدفاع عن أنفسهم إن لم يستطيعوا ذلك، بحيث إنهم يستسلمون للمنتصر إذا اقترب من المدينة بنصف فرسخ دون أن يتهموا بالجبن ولا بالخيانة، ذلك ما جعل عاصمة كهذه تتلافى التخريب لو كانت تتظاهر بوفاء باطل وخطير لأمير لا يستطيع الدفاع عنها."

وأيد مرمول في ما ذهب إليه مواطنه دي طوريس(24) ، بل إن هذا الأخير ذهب إلى حد التلميح بأن الفاسيين مهيأون نفسيا وعلى استعداد للقبول باستيلاء ملك مسيحي على مدينتهم، لأنهم – حسب زعمه – يعتقدون ذلك، كما يفهم من هذا الوصف الذي أعطاه للمدينة، والذي جاء فيه: إنه "تمتد بين مدينتي فاس [فاس البالي وفاس المرينية] ساحة كبيرة يقول المغاربة إن المجموع كله صورة سيف، نصله فاس البالي، وقبضته الساحة، ورمانته فاس الجديد، ويعتقدون أن ملكا مسيحيا سينال هذا السيف."(25)

انحلال الأخلاق وتفشي الفساد:

يبدو أن هذه الظواهر من فساد الأخلاق كانت أكثر ما ركز عليه الأندلسيون للطعن في أهل فاس، نسائهم ورجالهم وصبيانهم. وإذا أخذنا بعين الاعتبار ما كان يردده الأندلسيون من أمثال العوام بخصوص المرأة الفاسية بالذات، كهذا المثل القائل:

"عزبة باب السلسل(ة)، دخلت الزلال وطلقت الولول(ة)"(26)

فهل نذهب في الاستنتاج إلى أن نقول إن المجتمع الفاسي كان – في نظر الأندلسيين – مجتمعا منحلا ومتفسخا، والمرأة فيه غارقة في الرذيلة والفساد، إلى حد إنها لم تعد تخشى فضيحة أو عارا!؟

مهما يكن من أمر، فإن هناك ما يؤكد أن الأندلسيين كان لهم – بلا شك – شيء من هذا التصور على الأقل، وإلا لما شاعت بينهم صور من هذا القبيل. بل

إن بعض الأندلسيين، الذين نزلوا بفاس أو أقاموا فيها، عاينوا – إن صدقوا – من مظاهر الخلاعة والتهتك ما هو أفظع، مثل تفشي ظاهرة اللواط والشذوذ الجنسي، وما شابه ذلك من مناكر حتى بين بعض الأسر من خاصة المجتمع. والأنكى من ذلك أن من بين أولئك الأندلسيين من خصوا أنفسهم بفضح تلك الآفات والتشهير بها، لكن ليس من باب الورع والتقوى أو حتى من باب الاستنكار، وإنما بغرض التشفي والشماتة والطعن في أهل فاس. بل إن منهم من حرضوا على الانغماس في تلك الرذائل – كما كان عليه الحال في الأندلس – وشجعوا عليها قولا وعملا، وأشاعوا ذلك بين الناس ووصفوه بأوصاف لا تخلو من إباحية وبأقوال سافرة خليعة مفعمة بأحاسيس من الزهو والانتشاء.

ويعتبر يحيى اليكي – مقلب مواجع الفاسيين – أشهر مثال لهذا النموذج من الأندلسيين الذين عاشوا في فاس وقلبوا لأهلها ظهر المجن. فقد طعن في فحولتهم ورجولتهم، وعبث بصبيانهم، وسفه ببعض أفعالهم الشنيعة، وشتمهم علانية، وبسط كل ذلك أمام خاصتهم وعامتهم من خلال ما نسب إليه وما روج من أقوال منظومة فيهم، كقوله(27) :

إذا الطفل منهم مس دائرة استه درى أنها مخلوقة للفياشل

وكقوله(28) :

قصدت جلة فاس أسترزق الله فيهم
فما تيسر منهم دفعته لبنيهم

وقوله في صبي عبث به(29) :

عصابة سوء قبح الله فعلهم أتوا في علي بالدناءة والقبح
فزوه من وقت الصبح إلى المسا وناكوه من وقت المسا إلى الصبح
إذا جاء منهم واحد قام تسعة كما اختلفت نحل الربيع على الجبح

وقال كذلك(30) :

اطعن بنعلك من تلقى من النـــاس من أرض حمص إلى أقصى قرى فاس
قوم يمصون ما بالبعل من نطـــف مص الخليـــع زمـــان الـــورد للكـــاس

وعلى أي، فقد كان لهذه الآفات الاجتماعية مواسم مد وجزر، تبعا للظـــروف التاريخية العامة التي مر منها المجتمع الفاسي، ويبدو أن بدايات العصـــر الحديـــث كانت من بين "أزهى" تلك العصور، كما تؤكد ذلك العديد من الإشارات والشـــهادات. فقد تحدث الوزان عن شيوع ظاهرة الفساد بصفة عامة فـــي معظـــم أحيـــاء فـــاس وحوماتها. ففي عدوة الأندلس بالذات، كانت هناك دور عمومية تمارس فيها مهنـــة البغاء وتباع فيها الخمور بحرية وطمأنينة تامة، بل تحت رعاية السلطة(31) ، تمامـــا كما كان عليه الحال في الأرباض الهامشية الفقيرة المحيطة بالمدينة(32).

أما في الفنادق، لاسيما في عدوة القرويين، فقد كانت – حسب مرمـــول(33) – "ملاجىء للشياطين، ترتكب فيها آلاف المعاصي بكامل الإباحـــة وبـــدون عقـــاب، لدرجة أنه يسمح لأصحاب الفنادق بالخروج بزي النساء، محلقين اللحي، متمنطقيـــن كالنساء، مرققين صوتهم عند الكلام ومقلدين النساء لتحريض الرجال علـــى فســـق بشع، ويباح لهم اتخاذ وسطاء عموميين وبيع الخمر وإيواء النساء والصبيان..."

ويبدو أن هذه الأنواع من الموبقات كانت مألوفة وعادية في المجتمع الفاســـي، أوعلى الأقل كانت متفشية في شريحة عريضة منه وفي فئات من مختلف الأعمـــار، يشهد على ذلك ما كان يتغنى به علانية من قصائد منظومة في تلـــك الممارســـات والأفعال، كان ينظمها شعراء الملحون "في الحب، يصف فيها بعضهم حبه للنســـاء، وبعضهم حبه للغلمان، فيذكر دون حياء ولا خجل اسم الغلام الذي يهواه..."(34).

والأكثر من ذلك أن هذه المنكرات كانت مستشرية حتـــى بيـــن مـــن كـــان يفترض فيهم أن يكونوا قدوة للمجتمع الشعبي على الأقل، ونخـــص بذلـــك بعـــض الفرق الصوفية، التي دبت بين جماعاتها ظاهرة اللواط، حتى لقد سرى فـــي حقـــهم "المثل السائر على جميع الألسنة بفاس: (مثل مأدبة النساك التي حولتنا من عشـــرين

إلى عشرة)، ومعنى ذلك أن كل مريد حدث يعرف ما ينتظره ليلا..."، على حد تعبير الوزان(35).

ويظهر أن هذه المفاسد والعيوب التي كانت منتشرة بين أهل فاس، ولاسيما منها ظاهرة اللواط، كان شائعا أمرها حتى في بعض المجتمعات المسيحية الأوربية، بل إن هذه المجتمعات اعتبرتها قدرا محتوما بالنسبة لمدينة فاس، فإذا صدق دييكو دي طوريس، فإنه كان معروفا "أن لدى المسيحيين خبرا (أوحي) إلى سانت إيزيدور، أسقف إشبيلية، بأن ملوك فاس سيستأصلون بخطيئة اللواط."(36)علما أن هذا الأسقف عاش تقريبا في الفترة ما بين عامي 570 و636م، أي قبل تأسيس مدينة فاس بما يزيد عن قرن ونصف القرن(37) . ويغلب على الظن أن خبر هذا (الوحي) المزعوم هو نفسه الذي قصده مرمول، وإن بصيغة أخرى، حين حديثه عن تنكيل محمد الشيخ السعدي بالفاسيين وبعلمائهم خاصة، لما تغلب على أبي حسون الوطاسي – عام 1549م – معتبرا ذلك عقابا لهذا الأخير على المنكرات البشعة التي كان يبيح ارتكابها علانية محاربة لله ورسوله(38) .

وعلى أي فإن هناك مجموعة أخرى من المساوئ والعيوب التي رصدها الأندلسيون في المجتمع الفاسي، من بينها ما جمعه اليكي(39) في الأبيات التالية:

يا أهل فاس لقد ساءت ضمائركم فأصبحت فيكم الآراء متفقة
كل امرء قد حاز منقصة بها أحاط كدور العين بالحدقة
وربما اجتمعت في بعض سادتكم نقائص أصبحت في الناس مفترقة
كالقرن والقود المشهور والكذب الـ معروف والخلة الشنعاء والسرقة
فلا تهابن فاسيا مررت به وإن تقل فيه خيرا حول الورقة
والعنه شيخا وكهلا واجفه حدثا ونكه طفلا ولو ألقيته علقه
فلا سقى الله فاسا صوب غادية نعم ولا اخضر في أرجائها ورقة

كانت هذه إذن جملة من مواقف وآراء أندلسية في أهل فاس، والتي ارتكزت، بصفة خاصة، على استعراض بعض من مساوئهم وقبائح أفعالهم التي كان

الأندلسيون يستحضرونها، في الغالب، في مجالسهم الخاصة أو في معرض أحاديثهم للترويح على النفس من خلال تجريح الآخر، وذلك بما عرف عنهم من غلبة الطباع المرحة وحلاوة في المحاورة، وأجوبة مسكتة وسرعة بديهة، لاسيما لدى المولعين منهم بالدعابة والتندر والتفكه، أو لدى المشتهرين بينهم بالظرف وخفة الدم، وهي على أية حال خصال اجتمعت كلها في الأندلسيين "كالغريزة، في صبيانهم ويهودهم، فضلا عن علمائهم وأكابرهم..."، على حد قول المقري التلمساني(40)، وهي خصال يبدو أنه لم يكن يضاهيهم فيها في العدوة الجنوبية إلا أهل مراكش.

ومع أن معظم تلك المواقف والآراء تبقى في معظمها – من غير شك – مجرد حشو في هجو وكلام لا يعتد به ولا يعتبر، لأن غايته الطعن والإساءة ليس إلا، إلا أنه يمثل لا محالة شكلا من أشكال النقد الاجتماعي، وإن كان الفاسيون لم يستسيغوه، لشدة وطأته عليهم، فحاولوا الحد ما أمكن من تجني الغير عليهم، كما فعل الشيخ الصالح علي ابن حرزهم، الذي سعى إلى يحيى اليكي معاتبا إياه لإثنائه عن التمادي في التهجم على أهل فاس وما خلد فيهم من القبائح، غير أن خبيث الهجاء اليكي ما قدر فضل الرجل ولا اعتبر مكانته وشأنه، بل أطرق وأنشده ما يكره، قائلا(41):

رأيت جنان عدن في منامي وحور العين في أسنا لباس
فقلت : بما أحصل على هذا؟ فقيل: إذا هجوت لأهل فاس
فدع عنك الصلاح وكل بر فهجوهم يؤمن كل باس

وهكذا وأمام تمادي اليكي في هجو أهل فاس وإفراطه الشديد فيه، لم يجد الفاسيون بدا من الكيد له والنيل منه والتعسف عليه، "وساعدهم [على ذلك] واليهم مظفرا الخصي... والقائد عبد الله بن خيار الجياني... فقدموا رجلا ادعى عليه بدين، وشهد عليه به رجل فقيه يعرف بالزناتي ورجل آخر يكنى بأبي الحسين، من مشايخ البلد، فأثبت الحق عليه وأمر به إلى السجن فرفع إليه وسيق عنيفا، فلما وصل إلى بابه

طلب ورقة من كاتبه، وكتب فيها وأنفذها إلى مظفر مع العون الذي أوصله إلى السجن، فكان ما كتب:

ارشوا الزناتي الفقيه ببيضة يشهد بأن مظفرا ذو بيضتين
واهدوا إليه دجاجة يحلف لكم ما ناك عبد الله عرس أبي الحسين"(42)

كيفما كان الحال فإن هذا الأسلوب الذي اعتمده الفاسيون لتأديب اليكي يبقى، من غير شك، أرحم وأهون كثيرا من أسلوب التواطؤ الذي اعتمدوه للإجهاز على لسان الدين ابن الخطيب حرقا. نعم، قد يكون اليكي لقي هو الآخر حتفه قتلا، لكن على يد أهله من الأندلسيين وفي بلاده الأندلس وليس على يد أهل فاس.

مهما يكن من أمر فإن هذه الأساليب في الرد على المغرضين والجاحدين والحاسدين والخصوم إنما هي استثناء في أفعال الفاسيين وإلا فإن لهم هم كذلك باع طويل في المنظوم والمنثور، وهو معلوم ومشهور. وبالإضافة إلى ذلك فقد ذهب أهل فاس إلى حد تحصين مدينتهم بإحاطتها بهالة دينية وإضفاء صفة القدسية عليها لتعزيز مكانتها في النفوس وتأكيد دورها في حياة الناس، وهذا من خلال إشاعتهم لحديث منسوب إلى النبي – صلى الله عليه وسلم – جاء فيه: "تكون بالمغرب مدينة تسمى بفاس، أقوم أهل المغرب قبلة، وأكثرهم صلاة، أهلها على السنة والجماعة ومنهاج الحق، لا يزالون متمسكين به، لا يضرهم من خالفهم، يدفع الله عنهم ما يكرهون إلى يوم القيامة."(43) فهل يدخل الكشف عن قبر المولى إدريس الأصغر – مؤسس المدينة، إن كان هو فعلا – في العصر المريني هو أيضا ضمن هذا السياق؟

كيفما كان الجواب فقد كان من حق الفاسيين أن يدافعوا عن أنفسهم ويتعصبوا لمدينتهم بالشكل الذي يليق بهم ويرضونه لأنفسهم ما دام أن حب الأوطان من الإيمان.

إنما وبعد كل هذا، إلى ما ذا كان يرمي الأندلسيون من تحاملهم على أهل فاس ومعاداتهم، والتسفيه بأفعالهم، والتشنيع بأعمالهم بتلك الحدة التي تثير

أحيانا نوعا من التقزز والاشمئزاز، وتخلف شعورا وإحساسا بضرورة النفور منهم وتحقيرهم؟

الواقع أن الأندلسيين تجنوا – كما سبق الذكر – على المغاربة كافة، إلا أنه في حالات كهذه كان من الطبيعي أن ينصب تحاملهم – بصفة خاصة – على أهم الرموز وعلى العواصم وأشهر الحواضر والأوطان فأدت بذلك فاس – مثل مراكش وسلا... – ثمن تحضرها ومباهاتها لمثيلاتها في الأندلس، وإلا فبم تكون المفاضلة والمنافرة والمفاخرة والسجال، أليس بالرجال والأمجاد والبلد...؟ إن هذا هو ما يلمس في مختلف أطوار الصراع وأشكاله وألوانه التي طغت على العلاقات بين العدوتين – كما هو الشأن عادة بين بلدين جارين – سواء في طابعها السياسي أم في صبغتها الاجتماعية أم الثقافية أم في غير ذلك.

ويمكن القول إن الأندلسيين وجدوا هم كذلك أنفسهم مدفوعين إلى سلوك ذلك المسلك، بالرغم مما غلب عليه من تعصب وغلو أحيانا، وذلك رد فعل منهم على الحضور المغربي في الأندلس ودور العنصر البربري في مختلف أطوار تاريخها، الذي اعتبر منافسا قويا غير مرغوب فيه، لاسيما من العنصر العربي المشرقي، نظرا لكثرة ما حدث من احتكاك وصدام بين هذين العنصرين، سواء أثناء الفتح الإسلامي للأندلس أو بعد ذلك في فترات استقلال الغرب الإسلامي أو خلال عمليات الاسترداد المسيحي لهذه الرقعة من العالم الإسلامي.

لقد ظهر الأندلسيون من أصل عربي أكثر العناصر الأندلسية "قومية" وتشددا وتعصبا لانتمائهم العربي ولبلادهم الأندلس، وأكثر بغضا ومقتا لمن ينازعهم فيها، لذلك حرصوا كل الحرص على التميز بهويتهم عن هويات غيرهم، وذلك واضح في تراجم أعلامهم، إذ تجد: الأزدي القرطبي، والأنصاري الخزرجي الغرناطي، والغساني المالقي، والقيسي الإشبيلي، والقضاعي المرسي، والطائي البلنسي... أضف إلى ذلك فضلهم في حمل الدين وتحضرهم وكونهم أصحاب اللسن والبيان...

كل ذلك غرس في نفوسهم طبائع الأنفة والاستعلاء التي جعلتهم يشمخون بأنوفهم على غيرهم، لاسيما إذا كان هذا الغير من طينة البربر.

تبعا لكل هذا إذن، فإنه يمكن القول إن النفور الذي سرى بين أهل العدوتين، نتيجة لظروف تاريخية معينة – وكان أهل فاس من أكبر "ضحاياه" – إنما هو في الأصل امتداد لانعكاسات ما كان يحمله مشرق العرب عن مغرب البربر منذ ما قبل الفتح الإسلامي لشمال إفريقيا من أفكار غير واضحة وأحكام قيمة مسبقة وقلة معرفة بهذا العالم، مما ولد لدى عرب المشرق نوعا من الحيطة والحذر وعدم المجازفة في التعامل مع البربر أو الاحتكاك بهم، وهو ما يمكن أن يستنتج بجلاء من سياسة التريث ثم الرفض للخليفة عمر بن الخطاب لرغبة قائده عمرو بن العاص في فتح بلاد إفريقيا البربرية، لأنها، كما قال: "ليست إفريقيا، ولكنها المفرقة غادرة مغدور بها، لا يغزوها أحد ما بقيت"، أو "لا أوجه إليها أحدا ما مقلت عيني الماء"(44) ، كما في رواية أخرى.

والراجح أن ما لقيه العرب الفاتحون لبلاد البربر من مقاومة شديدة وعنيفة على امتداد عقود طويلة، وما ترتب عنها من فواجع وآلام وضغائن وتشنجات نفسية ووجدانية، كل ذلك خلف بعض الأحقاد ومواقف عدائية مستكينة وهواجس وانفعالات متدمرة خفية وكامنة لدى العرب، ظلت حية في نفوسهم يحملونها في صدورهم أينما حلوا وارتحلوا، لكنها طغت في كتاباتهم التي عكست تلك الهواجس بتلقائية وعفوية أحيانا، فجاء ما خصوا به البربر بالتالي مشحونا بذاتية منفعلة ومفرطة، لما وصفوهم به من أوصاف غير موضوعية، ولما قدموا عنهم من معلومات وأفكار ليست كلها مستندة إلى أسس صحيحة، بل ومشوهة في الغالب عن قصد، فجاءت تبعا لذلك إلى الهجو أقرب.

وعلى سبيل المثال، فإن البربر، بالنسبة لياقوت الحموي(45) هم "أجفى خلق الله، وأكثرهم طيشا، وأسرعهم إلى الفتنة، وأطوعهم لداعية الضلال، وأصغاهم لنمق الجهالة..." ولما تعرض لأصل نسبهم، ركز الحموي على اختلاف المؤرخين

فيه، لكنه لم يستسغ أن يكون "أكثر البربر تزعم أن أصلهم من العرب." فرد على ذلك بأنه "بهتان منهم وكذب..."

وللإشارة فإن الحموي جمع مادة لا بأس بها عن البربر، لكنها كلها في ما نسب إليهم من قبائح الأفعال والخلل الشنيعة، ولم ينسب إليهم ولا مزية فضل واحدة إلا مزية إكرام الضيف، التي لم يسمح بها إلا ليقرنها بأخس المناكر وأحطها: اللواط والشذوذ. لكل هذا لم يكن غريبا أن ينهي كلامه عنهم بهذين البيتين للسميسر الأندلسي، أنشدهما إياه أبو القاسم النحوي الأندلسي الملقب بالمعلم، جاء فيهما:

رأيت آدم في نومي، فقلت له: أبا البرية ! إن الناس قد حكموا
أن البرابر نسل منك، قال: أنا! حواء طالقة إن كان ما زعموا

وقصارى القول، إن حواجز نفسية كانت تقف بين العرب الأندلسيين والمشرقيين من جهة والبربر المغاربة من جهة أخرى، تراوحت بين مد وجزر، طفت أحيانا وتأججت، وخفت أحيانا وخمدت، ولكنها ما تولت أبدا، لأنها نتاج تاريخ وذهنية، وإلا ما معنى أن نجد إلى هذا العهد مفكرا كأحمد أمين يعزف نغمة الأمس نفسها على الوتر نفسه وبالعقلية ذاتها، تماما كما فعل غيره في التعامل مع تاريخ المغرب ورجاله. فأثناء تناوله لتاريخ الأندلس، لم يجد أدنى حرج في نعت جيش يوسف ابن تاشفين بالبربر الأجلاف(46) ، لا لشيء إلا لأنه خلص الأندلس من عبث ملوك الطوائف. ولما تعرض لحادث أسر أحد هؤلاء الملوك، وهو المعتمد ابن عباد، على يد ابن تاشفين، لم يتردد هذا المفكر في أن يبدي وبحماس زائد وبنزعة مشرقية تعاطفه الشديد مع الملك الأسير ونقمته على الآسر، لأن هذا الأخير "كان يستطيع أن يحبس ابن عباد في قصر فخم يليق به من غير قيود وأغلال، ويجري عليه من الرزق ما يكفيه عن سعة، وبذلك يضمن تحصيل رغبته ويخفف من وقع الألم على ابن عباد، ولكنه [ابن تاشفين] بدوي جلف لا يفهم معنى الإنسانية."(47).

كانت هذه إذن جملة مشاهد وصور ملتقطة بعيون أندلسية عن فاس أو بالأحرى عن أهلها، والتي تعكس نموذجا لأسلوب من صراع لم يمت بعد، جر على

فاس وأهلها ما كان وسار مما تعرضنا لبعضه على سبيل الاستئناس، إنما فاس بقيت، لكن أين هو الأندلسي فيها!؟.

الهوامش :

(1) – ألقي هذا العرض في الندوة الدولية حول "فاس والأندلس" التي نظمتها كلية الآداب والعلوم الإنسانية بسايس – فاس يومي 29 و30 نونبر 1995، ونشرت ضمن "أعمال ندوة: فاس والأندلس"، منشورات ك.آ.ع.إ. سايس–فاس 2001، ونعيد نشره نظرا لما شابه من أخطاء مطبعية كثيرة ونتمنى أن يساعد نشر النص كاملا على استيعاب أعمق لمضمون الموضوع وتبديد تأويلات بعض السادة المعقبين وردود أفعالهم.

(2) – أورد هذين البيتين أحمد ابن القاضي في: جذوة الاقتباس، في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس. جزآن، تحقيق: عبد الوهاب ابن منصور، دار المنصور، الرباط، 1973 و1974، 1 : 80.

(3) – هذه النعوت كثيرة في المصادر أندلسية ومغربية على حد سواء، وعلى سبيل المثال فقد تحدث الأمير عبد الله الزيري في مذكراته عن بغض الأندلسيين لجنس البربر "وبغضهم لجنسهم"، وتكلم عن تألبهم وبغضهم للزيريين...، انظر: كتاب التبيان عن الحادثة الكائنة بدولة زيري في غرناطة. القاهرة، 1955، صص. 20 و24. وتحدث لسان الدين ابن الخطيب من جهته عن "النفرة الطبيعية بين الأندلسيين والمغاربة..." راجع: إعمال الإعلام فيمن بويع قبل الاحتلام. القسم الثاني، تحقيق: ليفي بروفنسال، الرباط، 1934، ص. 227.

ويمكن رصد هذه النعوت كذلك في كتاب نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب...، لأحمد المقري التلمساني، 8 أجزاء، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1968، هنا وهناك.

كما يمكن الرجوع كذلك إلى: طرفة الظريف في أهل الجزيرة وطريف، المنسوب لعبد العزيز بن عبد الواحد الملزوزي، تقديم: محمد ابن شريفة، مجلة كلية الآداب بالرباط، العدد 1، 1977.

(4) – وجاء في التتمة:

أنا امرؤ إذ نبت بي أرض أندلس ... حثت العراق فقامت لي على قدم

أين الرحا والعلى من حازم يقظ ... يغزو أعاديه في الأشهر الحرم

إن كان سهما فلا تنمي رميته ... أو كان سيفا فمسلول على البهم

لا يكسر الله متن الرمح إن به ... نيل العلى وأتاح الكسر للمقام

ولا أراق دما من باسل بطل ... ومات كل أديب عبطة بدم

أوغلت في المغرب الأقصى وأعجزني ... نيل الرغائب حتى أبت بالندم

الفتح ابن خاقان: قلائد العقيان في محاسن الأعيان. طبعة تونس (مصورة عن طبعة باريس)، 1965، ص. 325.

(5) – قيل هذا بمناسبة تغلب الحكم المستنصر على الأدارسة بالمغرب. راجع: ابن حيان القرطبي: المقتبس في أخبار بلد الأندلس، مطبعة سيما، بيروت، 1965، ص. 160.

(6) – نفح الطيب، م. س.، 1 : 403.

(7) – عبيد الله بن أحمد الزجالي القرطبي: أمثال العوام في الأندلس (مستخرجة من كتابه: ري الأوام، ومرعى السوام، في نكت الخواص والعوام). جزآن، تحقيق: محمد ابن شريفة، فاس، 1971، 2 : 253، مثل رقم 1082. والمقصود بالغرب هنا: المغرب الأقصى.

(8) – المصدر نفسه (م. ن.)، 2 : 45، مثل رقم 175.

(9) – م. ن.، 2 : 111 ، مثل رقم 492. "أتيس" بمعنى: أغبى وأجهل.

(10) – م. ن.، 2 : 110، مثل رقم 491. و"البائت" هو الحارس أو الجندي، و"المقرع" هو العصا. وهناك أمثال أندلسية أخرى كثيرة تتعلق بالبربري، منها:

– "أتيس من عبو الفحام الذي كان ينحم الفحم بالورد." ينحم، بمعنى يزين.

– "حموا، وبني عمو." بمعنى: جاء القوم قضهم وقضيضهم.

– "في كدية عبو." عبو: تصغير لاسم عبد الله، ويكنى به في المغرب عن الكذب."

–"شاهد دكالة من قاع المطمورة." ولعل المقصود هنا اقام الدكاليين بالكذب والزور. راجع: م. ن.، ق.2،على التوالي: ص. 111، م. رقم 493، ص. 194، م. رقم 854، ص. 402، م. رقم 1751، ص.433، م. رقم 1889...

(11) – ورد في نفح الطيب (م. س.، 6 : 228؟) مايلي: "لما كان البربر بالقرب منهم [الأندلسيون] وليس سوى تعدية البحر، ويرد عليهم منهم طوائف منحرفة الطباع خارجة عن الأوضاع ازدادوا منهم نفورا وأكثر تحذرهم من نسب أو مجاورة..." تقلا عن: ذ. محمد ابن شريفة: طرفة الظريف. م. س.، ص. 44، و لم نتمكن من الوقوف على هذا النص في الطبعة التي اعتمدناها من نفح الطيب.

(12) – المسالك والممالك. قسم: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب. مطبعة الحكومة، الجزائر، 1957، صص. 115–116. ومما يدل على التكلف والتصنع الغالب على هذا النوع من المقارنات أن ياقوت الحموي، الذي استقى معظم مادته عن فاس من كتاب البكري، اكتفى بالإشارة فقط إلى تفاح عدوة الأندلسيين، في حين استنكف عن ذكر أترج عدوة القرويين. انظر: معجم البلدان. دار صادر، بيروت، د.ت.، 4: 230. ومن جهة أخرى، ففيما يتعلق بخاصية الجمال، خالف ابن القاضي البكري في مقارنته تلك، حين اعتبر "رجال عدوة القرويين أجمل من رجال عدوة الأندلس، وكذلك نساؤهم." م. س.، 1: 37.

(13) – البكري: م. س.، ص. 117.

(14) – م. ن.، ص. 115.

(15) – تاريخ الشرفاء. ترجمة: محمد حجي ومحمد الأخضر، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع سلا، 1988، ص. 142.

(16) – الحموي: م. س.، 4 : 231.

(17) - ابن إبراهيم عباس بن محمد التعارجي: الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام. 10 أجزاء، تحقيق: عبد الوهاب ابن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، 1974-1983، 1: 13.

(18) - علي الجزنائي: جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس. ط. 2، تحقيق: عبد الوهاب ابن منصور، الرباط، 1991، ص. 33، هامش رقم 78 (نسخة الخزانة الحسنية بالرباط، عدد 5166).

(19) - معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار. تحقيق: محمد كمال شبانة، المحمدية، المغرب، د. ت.، ص. 179. انظر هذا النص كذلك ضمن مجموعة "مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس"، مطبعة الأسكندرية، 1958، صص. 69-115.

(20) - الحسن بن محمد الوزان: وصف إفريقيا. جزآن، ترجمة: محمد حجي ومحمد الأخضر، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، 1980 و1982، 1: 214.

(21) - البكري: م. س.، ص. 117.

(22) - م. ن.، ص. 116. وبالمناسبة فإن ياقوت الحموي، اليوناني الأصل البغدادي الدار، بالرغم من أنه نقل هذا النص بحذافيره عن البكري وأثبته، إلا أنه سمح مع ذلك لنفسه بالإضافة إليه وشحنه أكثر، فجاء كالآتي: "... وكذلك رجال عدوة الأندلسيين أشجع وأنجب وأنجد من رجال القرويين..." م. س.، 4: 230.

(23) - إفريقيا. 3 أجزاء، ترجمة: محمد حجي وآخرين، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1984-1989/88، 2: 145.

(24) - ذكر دي طوريس "أن أهم قوة في هذه المدينة [فاس القديم] هم سكانها الذين ليسوا شجعانا بطبيعتهم." (م. س.، ص. 114.) وأنهم "أكثر غنى وتشبثا بملذاتهم، لذلك يكرهون الحرب وينفرون منها... ويعللون قلة شجاعتهم بأمر وجهه إليهم أول ملك أسس مدينتهم، مؤكدين أنه قال لهم: إذا جاء بعض الأمراء ليقيم الحصار أمام فاس و لم يكن أميرها إذ ذاك قادرا على مواجهته بالقتال، فلهم أن يسلموها للعدو، دون أن يمكن اتهامهم حقا بالجبن أو الخيانة، يقولون إن الملك الأول اتخذ ذلك القرار لتحتفظ المدينة ببهائها..." (م. ن.، ص. 145.) وبطبيعة الحال فإن هذا الكلام إنما هو دعوة صريحة للملوك المسيحيين لتوجيه حملات لاحتلال المغرب عامة وفاس خاصة، وهو ما عبر عنه دي طوريس في مكان آخر، بقوله: "... بحيث إن ملكا مسيحيا يمكن أن يعمل على أن يجبي منهم [أهل فاس] الخراج، لأنهم على أي حال لا يريدون تحمل متاعب الحصار." (م. س.، ص. 147.) وكيفما كان الحال، فسواء صدقت هذه الروايات أم جانبت الصواب بإلصاقها الجبن وقلة الشجاعة بالفاسيين، إلا أنه ينبغي أن نتفهم أن حرص أهل فاس على الأمن ينبعث من طبيعة أعمالهم التجارية والحرفية، التي لا تستقيم إلا في ظل انتشار الطمأنينة.

(25) - المكان نفسه. بل إن دي طوريس يذهب إلى القول كذلك إن أفرادا وأميرات من البلاط السعدي بمراكش يعتقدون بأن الأمير البرتغالي دم لويس سيصبح ملكا على المغرب. م. ن.، ص. 161.

(26) - أمثال العوام، م. س.، 2: 389، م. رقم 1707.

(27) - صفوان بن إدريس التجيبي المرسي: زاد المسافر، وغرة محيا الأدب السافر. تحقيق: عبد القادر محداد، دار الرائد العربي، بيروت، ط . 1980، ص. 121.

(28) - م. ن.، ص. 122. ودون الحموي (م. س.، 4: 231.) هذين البيتين كالآتي:

دخلت بلدة فاس أسترزق الله فيهم

فما تيسر منهـــم أنفقته في بنيهـــم

ومثل هذه النقول محرفة لأبيات من شعر اليكي كثيرة في مصادر مختلفة، وهو ما يدل، في الغالب، على أنها كانت كثيرة الانتشار وتحفظ بسهولة ويجتهد متلقيها في القرض على منوالها ومحاكاتها أو إدخال تغييرات عليها...

(29) - زاد المسافر، م. س. ، ص. 122.

(30) - المكان نفسه. ودون الحموي هذين البيتين (م. س.، 4: 231.)، كما يلي:

اطعن بأيرك من تلقى من النـــــــاس من أرض حمص إلى أقصى قرى فاس

قوم يمصون ما في الأرض من نطف مص الخليع زمـــان الـــورد للكـــــاس

وتظهر هنا الحمية المشرقية واضحة لدى الحموي، حيث إنه استبدل بلدة حمص الشامية بمصر، القريبة من بلاد البربر.

(31) - الوزان: م. س.، 1: 193.

(32) - م. ن.، 1 :215-216.

(33) - م. س.، 2: 147. وهذا النص شبيه بذلك الذي أثبته الوزان، بل نقل عنه، وجاء فيه إن من أسوإ ما في هذه الفنادق "مساكنة رهط يقال لهم ((الهيوى))، وهم رجال يرتدون ثياب النساء ويتحلون بحليهن، يحلقون لحاهم ويقلدون النساء حتى في طريقة كلامهن... إنهم يتغنجون أيضا. ولكل واحد من هؤلاء الأنذال صاحب يتسراه ويعاشره كما تعاشر المرأة زوجها. ولهؤلاء الناس أيضا في الفنادق زوجات أخلاقهن كأخلاق المومسات في مواخير أوربا. ولهم كذلك ترخيص بشراء الخمر وبيعه دون أن يزعجهم موظفو الحاشية." م. س.، 1: 183.

(34) - م. ن.، 1: 202.

(35) - م. ن.، 1: 209.

(36) - دي طوريس: م. س.، ص. 138.

(37) - ولد هذا الأسقف بمدينة قرطاجنة وتوفي بإشبيلية. وقد كان عالم لاهوت، وإليه يعزى تنظيم الكنيسة الإسبانية، ويعتبر من المدافعين عن الديانة المسيحية ضد المذاهب الفلسفية والثقافات المادية الملحدة، وله مجموعة من المؤلفات الدينية وأخرى في الأخلاق والفنون المختلفة...

(38) - ذكر مرمول أن محمدا الشيخ السعدي لما استولى على فاس و"عاتبه الفقهاء على محاربته لملك يدين مثله بدين الإسلام، أجابهم بأنه يفعل ذلك عقابا له على المناكر البشعة التي يبيح ارتكابها علانية محاربة لله ورسوله، بحيث إنه مثل هؤلاء الفقهاء بمجرد ما أصبح سيدا، وكان معه قاض (سيدي موسى) أخذ في ذبح كل من استطاع إمساكه، ومنع أن يدفنوا حتى أكلتهم الكلاب، الأمر الذي لم يطل، إذ ما كاد يرجع عنهم حتى استأنفوا عاداتهم الكريهة، وإن كان ذلك بجرأة أقل من السابق." م. س.، 2: 148.

(39) - زاد المسافر، م. س.، ص. 121.

(40) - م. س.، 3: 381.

(41) - جذوة الاقتباس، م. س.، ص. 1: 80.

(42) - نفح الطيب، م. س.، 3: 324.

(43) - ذكر الجزنائي أن الفاسيين كانوا يتناقلون هذا الحديث خلفا عن سلف، وأنه موجود في كتاب لدراس بن إسماعيل المكنى بأبي ميمونة بخط يده مسندا إلى علي بن أبي مطر بالأسكندرية عن محمد بن إبراهيم ابن الموازعن عبد الرحمن بن القاسم عن مالك بن أنس عن محمد بن شهاب الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم. م. س.، ص. 20. وبالنسبة لترجمة دراس بن إسماعيل، راجع: جذوة الاقتباس، م. س.، 1: 194 وما بعدها.

(44) - عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم: فتوح إفريقيا والأندلس. تحقيق: عبد الله أنيس الطباع، بيروت، 1964، صص. 33-34.

(45) - راجع: معجم البلدان، مادة "بربر"، م. س.، 1: 368-369.

(46) - ظهر الإسلام. ط. 5، دار الكتاب العربي، بيروت، 1969، 3: 174.

(47) - م. ن.، 3: 180.